د . عبد الجبار عطيوي

# الاستعمار وازمة التطور الحضاري في الوطن العربي

يمر العالم العربي بمرحلة تحولات اجتماعية واقتصادية عديدة تحمل فيها القوى الوطنية والقومية على التاثير في الاحداث باتجاه تبديل الاوضاع المتخلفة التي اوجدتها السيطرة الاجنبية خلال فترة طويلة من الزمن ، والقضاء على حالة التخلف والتجزئة ،واضعة نصب عينيها مستلزمات التطور الحضاري الحديث ، المادية والروحية ، مقتدية بالمحتوى الانساني والجوانب المضيئة فيالتراث القومي والحضارة العربية ، وفي خط معاكس لمخططات الاستعمار التي ترمي الى طمس مقومات الامة العربية وعزلها عن ماضيها المجيد لفرض الابقاء على حالة التجزئة القائمة حاليا والتي اوجدها الاستعمار وغذاها لكي يحافظ على اطول امد ممكن على سيطرته ومصالحه امتيازاته .

لقد عاشت الامة العربية منذ ما زوال الدولة العربية الكبرى عبر مئات السنين داخل اطار دويلات واقطار مختلفة ذات ظروف واوضاع متباينة ادت في نهاية الامر الى الخضوع الى السيطرة العثمانية التي دامت اكثر من اربعة قرون تميزت فيها المجتمعات العربية بحالة من الركود الفكري والاجتماعي والسياسي وضعها بمعزل عن التطور التاريخي للمجتمع الانساني، فاوجدت بذلك المظاهر الاولية لحالة التخلف التي نعاني منها حاليا .

ان السيطرة العثمانية بمجملها كانت سيطرة ذات اساليب استغلالية بدائية ، لانها كانت قائمة على نظام اقطاعي قبلي يخضع لاقلية مترفة تستند بالاساس الى جباية الضرائب بمختلف الاساليب دون استثمار واسع ومنظم للموارد الهائلة الموجودة بحوزتها في البلدان الخاضعة لها .

وكان من شروط بقاء هذا النظام على الصعيد الاجتماعي محاربة التطور الفكري والحريات العامة والتعليم ، والعمل على اشاعة الامية وضرب اي اتجاه للتحرر الفكري والسياسي.

ان هذه السيطرة العثمانية ادت الى عزل العالم العربي عن حركة النهضة الاوروبية وما صحب ذلك من نهوض وتطور في اوربا في مختلف النواحي العلمية والاجتماعية والسياسية والفكرية، هذا العزل الذي دام حتى القرن التاسع عشر حين بدات الاتصالات الاولى باوربا وبالحضارة الاوربية بسبب تطور النظام الراسمالي الاوربي ونزعة الدول الاوربية في التوسع والسيطرة العالمية ، وبسبب التفسخ العتيد في النظام العثماني .

ان بداية الاتصال بالنهضة الاوربية في القرن التاسع عشر قد ساعدت بعض المثقفين والضباط العثمانيين في الداخل والخارج على تحسس واقع التطورات العالمية الجديدة وعلائم الانهيار في الامبراطورية العثمانية ، فبادروا الى التجمع حول اهداف سياسية تطمح الى اجراء تحولات دستورية وادخال نظم حديثة للحد من الاستبداد والبروقراطية المركزية لترميم النظام الاستغلالي القائم . وكانت اهم هذه التجمعات هي « جمعية الاتحاد والترقي » التي نجحت اخيرا في اجراء بعض التحويلات بهذا الاتجاه في جهاز الدولة ، غير انه يحدث كثيرا في التاريخ ان ترفع فئة ما سدادة القنينة لينطلق قمقم لم تحسب له حسابا . وهكذا كان الامر فيهذه الحقبة ،اذ ان دخول التيارات الاوربية الحديثة قد ادى الى الاسراع في نشوءافكار السيطرة الطبقية الجديدة لدى الفئات ذات الوعي في هذاالصدد، ومن ثم الفئات التي اخذت ترتبط بالاساليب الجديدة فيالاستغلال الراسمالي . وبعدئذ ، شاءت هذه الفئات ام أبت ،ادت التطورات التقدمية النسبية والمحدودة التي اوجدتها افكار جمعية الاتحاد والترقي الى نشوء وتطور الافكار القومية الشوفينية التركية التي تدعو الى السيطرة التركية على جميع شعوب الامبراطورية العثمانية ، اي العودة الى الاستبداد بأسلوب جديد . كما ادت بالمقابل الى نشوء وتطور الافكار القومية للشعوب المسيطرة عليها وخاصة الشعوب العربية التي تدعو الى الانعتاق من السيطرة التركية وايجاد الدولة القومية العربية ، وذلك كرد فعل للتيار القومي الشوفيني التركي وكذلك نتيجة للتاثيرات الهامة للافكار الاوربية التي توغلت في عقول المثقفين بسبب الاتصال باوربا ، ونتيجة التوغل الاوربي في المناطق العربية ، وهكذا اوجدت التطورات الداخلية في الامبراطورية العثمانية ، وبالتاثربالعوامل الخارجية شروط زوالها وانهيارها الحتمي، فبعد ان انحرفت جمعية الاتحاد والترقي عن اهدافها الاولى ونكثتبعهودها للشعوب غير التركية اخذ الاتجاه المؤيد للجامعة الاسلامية العثمانية ضد النفوذ الاوربي يضعف بسرعة في الوقت الذي اخذ ينمو ويسود الاتجاه العربي الداعي الى الانفصال التام عن الدولة العثمانية ، اي بقويضها وخلق دولة عربية قومية .

وفي هذا الوقت ايضا كان الاستعمار الاوربي الامبريالي الناشيء يرقب الاوضاع ويتدخل باتجاه اضعاف الدولة العثمانية لاقتسام « الرجل المريض » ، وزادت اتصالاته بطرق متعددة بالحركات المناهضة للسيطرة العثمانية . ان توجه الاستعمار الاوربي الى البلاد العربية وقت ذاك كان بسبب الموقع الاستراتيجي الهام الذي تحتله البلدان

العربية ، لانها تشكل الجسر الرئيسي الذي يربط كلا من افريقية واسيا باوربا ويجدر بالذكر انه كان لمصر اهمية خاصة بالنسبة للمستعمرين في هذا المجال .

ان الدول الاستعمارية كانت تطمع بقوة في السيطرة على قارتي آسيا وافريقيا وقد شجعها على ذلك ضعف الدولة العثمانية وعجزها عن الدفاع عن حدود أمبراطوريتها .

وبالاضافة الى الموقع الاستراتيجي للبلدان العربية فان اطماع الدول الاوربية كانت تتوجه اليها ايضا لتأمين اسواق جديدة لمنتجاتها الصناعية وللحصول على مصادر جديدة للمواد الاولية . فكانت البلاد العربية مركز نشاطات اقتصادية مختلفة تمثلت في شركة الهند الشرقية البريطانية وغرفة مرسيليا التجارية وغيرها من المؤسسات الاقتصادية . وتوافد على البلاد العربية رجال الاستخبارات والمبشرون والسواح ، وكان التنافس على اشده بين الدولتين الاستعماريتين العظميين فرنسا وبريطانيا والذي بدا منذ الحملة الفرنسية المعروفة على مصر من ١٧٨٩ ـ ١٨٠١ ، وشرعت بريطانيا في السيطرة على مضايق الخليج العربي واقاليمه منذ اوائل القرن التاسع عشر . وكان التسابق الاستعماري للسيطرة على آسيا وافريقيا عاملا اساسيا في حفر قناة السويس مما زاد من اهمية مصر بالنسبة للدول الاستعمارية .

ان التدخل التدريجي الاقتصادي الاوربي قد نشأ وتوسع في اواخر عهد الدولة العثمانية بسبب تأخر هذه الدولة وفقرها للامكانات الهائلة للدول الاوربية وخاصة فرنسا وبريطانيا والمانيا .

وهكذا نشأت مناطق نفوذ لهذه الدول في البلدان العربية حتى قبل زوال الدولة العثمانية ، وكان حصول المانيا على مشروع سكة حديد برلين ـ بغداد قد منحها موضع قدم راسخ في المنطقة .

وبعد ان ازداد التنافس بين الدول الاستعمارية على تقسيم العالم حدة قامت الحرب العالمية الاولى بين فرنسا وبريطانيا من جهة وبين المانيا من جهة اخرى التي تحالفت مع الامبراطورية العثمانية متخذة من هذا التحالف طريقا لوراثتها بدلا من الحرب التي اختارها الطرف الاخر . وقد وجدت بريطانيا خاصة وكذلك فرنسا في الحركة القومية الناهضة خير حليف ضد الدولة العثمانية ، فبذلت لها الوعود واملتها في تحقيق اهدافها وخاصة مع قيادتها الرسمية آنذاك المتمثلة بالشريف حسين الذي قام بالثورة العربية في الحجاز للانفصال عن الدولة العثمانية وتأسيس الدولة العربية .

ان الثورة العربية كانت حركة استقلالية عامة ، غير اقليمية ، ساهم فيها الوطنيون العرب من الاقطار العربية المختلفة على امل الحصول على استقلال العرب واسترداد حريتهم والتخلص من السيطرة العثمانية التي استمرت عدة قرون .وكان للثورة العربية دور كبير من الناحية العسكرية في مساعدة قوات دول الوفاق ضد الدولة العثمانية. وقد جاء في تقرير وزارة الحربية البريطانية عن العمليات العسكرية في ٢٨ تموز ١٩١٨ ما يلي :

« لولا العرب لما تمكن الانكليز من احراز النصر والتقدم في ساحة معارك طولها ١٠٠٠ كم عطل العرب فيها اكثر من ٤٠ الف مقاتل تركي ». كما ان الثورة العربية قد افسدت مخططات الالمان وسدت منافذ البحر الاحمر والمحيط الهندي اذ كانت المانيا تأمل في ان تستخدم تحالفها مع الدولة العثمانية لايجاد جسر بين المستعمرات الالمانية في شرق افريقيا والمانيا .

غير انه بينما كانت المفاوضات تجري بين العرب والانكليز خلال الحرب على اساس الاعتراف للعرب باستقلالهم مقابل الثورة على العثمانيين وانضمامهم الى جانب دول الوفاق وعلى اساس تنفيذ الوعود التي اعطيت لهم ، كان الانكليز والفرنسيون يجرون فيما بينهم مفاوضات سرية لاقتسام البلاد العربية وتوزيع ممتلكات الدولة العثمانية . وقد اسفرت هذه المفاوضات عن اتفاقات تناقض العهود التي قطعوها للعرب، وكان على راس هذه الاتفاقات الاتفاق المعروف بمعاهدة سايكس ـ بيكو التي قطعت أوصال البلاد العربية وحالت دون قيام دولة واحدة للعرب. وبالاضافة الى ذلك جاء مشروعهم الرامي لاقامة قاعدة استعمارية في فلسطين تقوم عليها دولة صهيونية ذات خطط واهداف بعيدة المدى ترمي الى التغلغل في الاقطار العربية والسيطرة عليها وتعمل على فصل المشرق العربي عن مغربه وفقا لمقتضيات مصالح الاستعمار في هذه المنطقة .

ان صراع القوى الاستعمارية من اجل السيطرة على الاقطار العربية كان احد الاسباب الرئيسية لقيام الحرب العالمية الاولى . وخلال الحرب فرضت الوصاية الانكليزية ـ الفرنسية المشتركة على العالم العربي ، وتحولت مصر الى مستعمرة تابعة لبريطانيا وجرت السيطرة على شبه الجزيرة العربية ، فاحتلت القوات البريطانية العراق وفلسطين وسوريا .

ان الولايات المتحدة الامريكية التي لم تحصل على اية منطقة للنفوذ ولم يتسن لها الاشتراك في اقتسام البلاد العربية قد اختارت طريقا يهدف الى ابعاد الدول الاوربية عن الشرق الاوسط واقتسام مناطق النفوذ من أجل ايجاد مواقع قدم لها في هذه المنطقة ، وذلك باصدار الرئيس ولسن رسالته المعروفة « بالبنود ١٤ » الموجهة الى الكونغرس الامريكي في ٨ كانون الثاني عام ١٩١٨ والتي ضمنها الدفاع عن الديمقراطية والانسانية واحترام ارادة الشعوب وحريتها واستقلالها واعلانه عن رفضه لكافة المعاهدات السرية التي عقدت لتقسيم مناطق النفوذ وتجزئة اراضي الامبراطورية العثمانية بين الدول خلافا لارادة شعوبها .

وكان من بين التصريحات الرسمية الهامة والتي اشارت علنا الى تراجع بريطانيا عن وعدها للعرب بحقهم في ايجاد دولة واحدة هو التصريح الذي اطلقه وزير خارجية بريطانيا في حزيران عام ١٩١٨ ردا على الاسئلة التي وجهها اليه بعض القادة السياسيين السوريين حول موقف بريطانيا تجاه العرب فاعلن ان بريطانيا تعترف باستقلال الاراضي التي حررها العرب من الظلم العثماني بأيديهم ، ويقصد بذلك الحجاز التي لم تكن على اي حال تغري المستعمرين في ذلك الحين باحتلالها ، اما الولايات او الاقطار التي حررها الانكليز ، ويقصد بذلك فلسطين وجنوب العراق ، فانها سوف تعمل على اقامة انظمة بموافقة واختيار الشعوب القاطنة في هذه المناطق نفسها ، وانها ، اي بريطانيا، سوف تقاتل من اجل حرية واستقلال الولايات والاراضي التي لا زالت تحت سيطرة العثمانيين ، ويقصد بذلك سوريا وشمال العراق .

نرى من ذلك ان كافة القوى المتحاربة والمتصارعة كانت تهدف في الحقيقة الى الهيمنة والسيطرة على الاقدار العربية ، وليس كما ادعت ووعدت على مساعدتها في نيل حريتها واستقلالها .

ورغم كل ذلك استمر القادة العرب في تعلقهم بالامال الوهمية التي وعدهم بها قادة الدول الاوربية ، واعتبروا ان لا طريق لديهم سوى التعلق بدبلوماسية هذه الدول لتحقيق اهدافهم ، وعقدوا آمالهم على مؤتمر فرساي عام ١٩١٩ الذي يعتبر من نتاج وتفكير الدول المنتصرة لاضفاء الصفة الشرعية على تقسيم مناطق النفوذ ، وفي هذه الاثناء ظهر عامل جديد ذو اهمية فائقة اثر بشكل حاسم على اتجاه الصراع بين القوى الاستعمارية وكيفية تقسيم البلاد العربية ، الا وهو اكتشاف النفط ، هذه المادة الحيوية للغاية بالنسبة للصناعة الرأسمالية النامية، فقديما كان الموقع الاستراتيجي هو الذي يدفع الدول الاستعمارية الى الاهتمام بالمنطقة العربية . اما اليوم فقد اضيف هذا العامل الجديد الذي اخذت اهميته وخطورته تزداد تعاظما مع الايام ، فتكالبت الاحتكارات النفطية العالمية للسيطرة على اكبر جزء ممكن من هذه المنطقة لوجود احتمالات كبيرة لاحتوائها على كميات هائلة من النفط في اراضيها .

وبعدئذ ، وبسبب تطور الوضع العالمي ككل ، وارتفاع الوعي ، ونمو الحركات الوطنية ، وازدياد التنافس بين الدول الاستعمارية استطاع عدد من البلدان العربية الحصول على الاستقلال السياسي الشكلي ، وظهرت بعض الدول العربية المستقلة كالعراق ومصر مثلا . الا ان السيطرة الاقتصادية قد بقيت في واقع الامر ، بين المصالح الاستعمارية الاوربية تنفذها وترعاها فئة من الحكام العرب المستقلين شكليا .

ان القوتين العظيمتين اللتين اقتسمتا خلال هذه الحقبة ، البلاد العربية هما بريطانيا وفرنسا . اما المانيا فقد خرجت من الحرب مهزومة وخسرت مناطق امتيازاتها وتهدم اقتصادها ، واهتز نظامها السياسي والاجتماعي في الداخل ، فلم يكن بمستطاعها التوغل في هذه المنطقة ، او اية منطقة اخرى في الواقع . اما الولايات المتحدة التي لم تشترك عمليا في الحرب ، فقد كانت بعيدة عن نطاق الصراع في الشرق الاوسط ، وكانت مهتمة بشكل خاص باسواقها الداخلية الواسعة ، وكذلك باسواق امريكا اللاتينية ، على انها كانت تحاول الحصول على ما امكن من حصص فيما يتعلق خاصة بمصادر النفط من حليفتيها بريطانيا وفرنسا .

غير ان قانون التطور اللامتساوي للبلدان الرأسمالية قد ادى خلال سنوات ما بين الحربين الى نمو الطاقة الصناعية الانتاجية لالمانيا الهتلرية نموا كبيرا لا يتناسب وحدود امكاناتها الداخلية والخارجية ، هذا مع الاخذ بنظر الاعتبار انفصال ٦/١ الكرة الارضية المتمثلة بالاتحاد السوفييتي عن النظام الرأسمالي العالمي ، واتمام تقسيم العالم بين الدول الاستعمارية ... كل ذلك قد ساعد على تعاظم الازمة العامة للنظام الامبريالي العالمي وشدد من حدة التنافس بين الدول الاستعمارية حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ .

وكانت نتيجة الحرب خسرانا مبينا لالمانيا الهتلرية ودول المحور ، وللافكار الفاشية والشوفينية ، وظهر الى الوجود ميزان جديد للقوى العالمية . فبالاضافة الى بروز دول اشتراكية متحالفة مع الاتحاد السوفييتي ، خرجت الولايات المتحدة من الحرب بخسارة اقل بالنسبة لخسارة حلفائها فوجدت نفسها في مركز يمكنها من فرض سيطرتها وتوسيع مدى استعمارها الاقتصادي على حساب حلفائها الانكليز والفرنسيين .

وقد شهدنا بشكل جلي في العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية تعاظم النفوذ الامريكي وتوسع مناطق امتيازاته وخاصة النفطية منها في البلاد العربية والشرق الاوسط على حساب المصالح الانكليزية والفرنسية .

ان هذا السرد الموجز لتاريخ السيطرة الاستعمارية على البلاد العربية يبين بأن القوى الاستعمارية كانت خلال هذه الحقبة تتصارع فيما بينها على اقتسام وطننا العربي والسيطرة على خيراته . ومن الواضح ان من اركان دوام هذه السيطرة وتعزيزها هو الابقاء على حالة التخلف والتجزئة في الوطن العربي ، لكي يبقى ضعيفا ومفككا وعاجزا امام هذه القوى الاجنبية . وان اي مسح بسيط للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في العالم العربي خلال هذه الفترة يبين بجلاء كيف كانت توضع العقبات باشكال مختلفة للابقاء على الفقر والجهل والامية ونشر الافكار اللا ابالية والانهزامية والتفريقية ، وتشجيع الخرافات والاوهام واللاعلمية والمظاهر الاجتماعية المتخلفة الاخرى كاللااخلاقية والوصولية والبروقراطية ، وانعدام الانظمة الديمقراطية ومحاربة الحريات العامة ومنع تطور الصناعة الوطنية والزراعة الحديثة وغير ذلك من آفات لمسناها ونلمسها في مجتمعاتنا العربية المعاصرة .

غير ان تاريخ هذه الحقبة ليس فقط تاريخ الاستعمار والصراع الاستعماري والسيطرة الاستعمارية ، بل هو من الجانب الاخر تاريخ نمو الوعي الوطني والقومي وتعاظم الحركات الوطنية وقيام الاحزاب الوطنية وانبثاق الثورات التحررية واخيرا نشوء وقيام دول عربية متحررة ذات برامج سياسية واقتصادية واجتماعية متقدمة .

واذا كان هناك من يدعي بأن للاستعمار فضلا في هذه التغيرات فانه فضل الظلام الذي يجعل النور يبدو ساطعا ، وفضل الظلم الذي يدفع الى الثورة ، وفضل الاستبداد والاستعباد الذي يوحد المستعبدين ويدفع بهم الى طريق الحرية .

اما المشاريع الاقتصادية والمؤسسات التعليمية التي انشأها الاستعمار في بلادنا كمشاريع النفط وسكك الحديد والكهرباء والمدارس فقد كانت بالاساس لغرض خدمة مصالحه الاقتصادية وتربية كادر في خدمته وسيط لادامة الانظمة السياسية التي تخدم مصالحه وترسخ هذه الاوضاع المتخلفة .

واذا كان لهذه المشاريع من مردودات ايجابية فهي على الضد من ارادة الاستعمار وبالرغم منها ، فقد حاول الاستعمار ويحاول تحديدها الى اضيق نطاق ممكن بالارهاب والخداع والاغراء وغيرها من الوسائل اللاانسانية .

بين هذا يتضح ان حركة الانبعاث القومي المعاصرة هي نتيجة حتمية للصراع العنيف والطويل والمتعدد الوجوه ضد السيطرة الاستعمارية خلال فترة تاريخية كاملة .

ان الاستعمار لم ولن يلق السلاح فهو يحمل اليوم بمختلف الاساليب وتحت واجهات جديدة لايقاف عجلة التطور الاجتماعي المنطلقة الى امام في بلادنا العربية في مختلف المجالات . هذا التطور الذي يهدد الاستعمار بانفلات المنطقة من قبضته الى الابد . وعليه فعلى الضد من المخططات الاستعمارية ينبغي ان يكون شعار المخلصين دائما التقدم في مختلف المجالات ضد الركود او التخلف ، العلم ضد الجهل ، الوحدة ضد الفرقة ، التضامن ضد التجزئة ، الحرية والديمقراطية ضد الاستبداد والديكتاتورية ، الاعتزاز بتراث حضارتنا العربية ومقومات امتنا العربية دون ان ننفصل عن الحضارة الانسانية مما يؤدي بنا الى العزلة والانطوائية ، وهو امر لا يتفق مع مطامح نهضتنا الحديثة .

وان من بين الرسائل التي تعيننا على القضاء على حالة التخلف الحضاري السائدة في العالم العربي والتي اوجدتها السيطرة الاستعمارية ما يلي :

١ ـ تحرير الاقتصاد العربي من كل سيطرة استعمارية وخاصة البترول .

٢ ـ ايجاد سياسة اقتصادية متناسقة بين الاقطار العربية في جميع المجالات .

٣ ـ الاعتماد على العلم والتكنولوجيا ، وتشجيع البحث العلمي في كل ميدان من ميادين الحياة .

٤ ـ وضع امكانيات الامة العربية وثرواتها الهائلة في خدمة التطور الحضاري والنهوض بالمستوى المعاشي للجماهير التي هي المالكة الحقيقية وصاحبة الحق في هذه الثروات .

٥ ـ احترام حريات الجماهير وتشجيع مساهماتها في عملية التطور وتوسيع وتعزيز الانظمة الديمقراطية .

٦ ـ القضاء على الجهل والامية بوضع خطط علمية مدروسة بين الاقطار العربية .

٧ ـ تبادل الخبرات والتجارب في المجالات العلمية والثقافية بين الاقطار العربية .

٨ ـ ايجاد وتطوير اجهزة قومية تلائم المرحلة التي تمر بها الامة العربية لتنسيق نضالها ضد الاستعمار ومن اجل التقدم والوحدة .

ان النضال الذي تخوضه الجماهير العربية بكافة احزابها وقواها الوطنية والقومية يتعرض اليوم الى تحد مباشر من قبل الاستعمار والصهيونية ، ويتطلب هذا النضال وحدة هذه القوى لكي تستطيع ان تصد المؤامرات والاطماع الجديدة في هذا العالم العربي مستندة الى الجماهير ذاتها كمنطلق اساسي في نضالها .